هوية الرواية الجزائرية

" الرواية والتاريخ"

الأستاذة: هجيرة طاهري
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

1- مفهوم الذات :

إذا قلنا الذاَّت فإنَّنا بضرورة نستدعي الهوية*، وهذه الأخيرة تستلزم التاريخ «التاريخ إنتاج للذات والذات إنتاج للتاريخ وهما معًا إنتاج للواقع والواقع إنتاج لهما»[1] والتاريخ يمثل الأصالة، فكل هذه المفردات تصب في قالبٍ واحد هو الهوية الذاتية، لعلَّ أول شيء يدل على هوية الرواية هو لغتها، لأنَّها النسق الذي يؤلف بين عناصر العمل الروائي حتى إن استخدم الروائي «المونولوج والإحالات الخارجية وأشكال الحوار والنصوص المختلفة، فإنَّ ذلك لا يمنع اللغة وهي هوية قبل كل شيء، أن تكون مادة كتابة تكتسح العلاقات جميعا بما في ذلك السارد ذاته...الذي وإن انفتح على التاريخ والتصوف والسياسة يذيب الأزمنة المختلفة في زمن لغوي متجانس»[2] وكما قلنا سابقا أن الذات والهوية متلازمان، سنقدم إذا مفهوم الذات من الناحية اللغوية والاصطلاحية:

«ذات (Self) بالإنجليزية و(LeSoi) بالفرنسية وردت في الصحاح بمعنى:

ذات الشيء: حقيقته أو جوهره، ويعرف الجوهري لفظة "ذات" إنّها مجموعة الحقائق التي تميز الشيء عما سواه وتساوي الماهية»[3].

أماَّ مفهوم الذَّات من الناحية الاصطلاحية فسنقدمه من الناحية الاجتماعية والأخلاقية والنفسية.

أولا: اجتماعيا:

يعرّف علماء الاجتماع الذَّات على أنَّها «بناء يفترض وجوده باعتباره أساس تحقيق التكامل والاتصال بين خبراتنا جميعا»[4] أي الذات لا تتكوّن إلا باتصال أفراد المجتمع مع بعضهم البعض وتبادل الخبرات فيما بينهم وإذا انفصلوا فإن الهوية الذاتية تضعف وتندثر.

ثانيا: أخلاقيا:

أما علماء الأخلاق فإنهم يقدمون مفهوما للذَّات مختلفا عن علماء الاجتماع فهي «وعي الإنسان لذاته كشخصية لمكانته في نشاط الناس الاجتماعي المشترك، وبفضل وعي الذات يكتسب الإنسان القدرة على مراقبة الذات وإمكانية التوجيه الهادف لتصرفاته، وضبطها وتربية الذات»[5] فالذات والأخلاق إذا متلازمان حيث ترتبط الذات بالقيم الأخلاقية العالية وهي الكرامة والشرف وحسن الخلق وذلك بفضل قدرة الفرد في توجيه ذاته نحو التربية الحسنة.

ثالثا: المفهوم النفسي للذات:

نجد أنَّ هذا المفهوم هو الآخر مختلفٌ تمامًا عن سابقيه من علماء الأخلاق والاجتماع، فهو قريب إلى الفلسفة، فعلماء النفس يعرفون الذاَّت بـ «الفصل بين الكائن الإنساني كمادة حيوية وعقلية من جهة، وكحياة حسية وشعورية ونفسية من جهة أخرى...وذهب علماء النفس إلى أنه يملك كل كائن شمسا داخلية في ذاته، والمهمة الرئيسية هي أن يكتشفها، وأن يلتحق بها حتى الالتصاق، لكي يصير كله شمسا»[6] أي أنه لكل فرد منا جانب مضيء داخله وعليه أن يبحث عنه ليتوحد فيه، وأغرب تعريف لذات الأمم جميعا وضحه (جبران خليل جبران) في قالب فني قائلا: «إنَّ الذَّات اليونانية قد استيقظت قبل المسيح، ومشيت بعزم وجلال في القرن الخامس قبل المسيح، أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخض بالنبي – محمد صلى الله عليه وسلم– حتى انتصبت كالجبار...ولما بلغت عصارى نهارها كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نوما خفيفا متقطعا»[7] إذا كان هذا حال الذات العربية فماذا عن الذات الجزائرية؟

يمكن القول إنَّ الذَّات تتحقق بقدر ارتباطها بالواقع، لنطلق عليها صفة الأصالة والعكس صحيح، حيث «يرتبط الواقع الأصيل بالذاَّت الفاعلة والمميزة، فحين تتخلص الذاَّت من نوازعها الفردية وتلتحم بنحن جماعي يمتلك بدوره أفكارًا وقيمًا ومشاعر موحدة ترمي إلى تأصيل الحرية داخل الذات، فإنَّ ذلك سيؤدي إلى قلة في أصالة الواقع، ولهذا فإنَّ قيمة هذا الأخير تتحدد بقربه أو بعده من درجة التلاحم هذه»[8] من هنا نرى أنَّ الهوية الجزائرية أو

الذاَّت الجزائرية هي كل الروابط السياسية والدينية والثقافية واللغوية والتاريخية التي تمثل كيان الشعب الجزائري، فالبحث عن الماضي هو بحثٌ عن الذاَّت حيث يلجأ الأفراد إلى الماضي ليؤكدوا هويتهم، فتصبح الأصالة هنا مرادفة للاستمرارية التاريخية: هويتنا ما خلفه أسلافنا[9].

ولكي يثبت الجزائري ذاته وهويته أمام المستعمر الفرنسي، رفض كل الروابط بينهما حيث تبنىَّ النظام الاشتراكي ليختلف عن النظام الفرنسي وقطبه الرأسمالي «الهوية هي تقاطع سيكولوجي (همها الرغبة في الوجود) وسوسيولوجي (همها التموضع داخل الاجتماع). وجب لكل ذلك أن تعمل الذات على إيجاد مواطئ وقوف تملك من خلالها ملامح وجودها الواقعي والتخييلي لإبراز وحدتها»[10].

فعلى كل فردٍ أن يحس بمدى أهمية المهمة المنوطة به وهي إثبات هويته، متحديًا في ذلك كل التحولات والمعوقات.

حقيقة إنَّ عمل الأديب شاق ومضني كي يحوي كل هذه التحولات داخل نصٍّ سردي فعلاقة الأدب بالاستعمار إذًا هي علاقة وطيدة تكاملية، فالأدب الاستعماري يعبِّر عن ثقافة الأنا في مقابل الآخر «إنَّ الأدب أيضا وسيلة مهمة للاستيلاء على الوسائل المهيمنة للتمثيل والإيديولوجيات الاستعمارية أو قلبها أو تحديدها»[11].

تبقى الرواية العربية متصلة بتراثها وتاريخها الأصيل، لتعبَّر عن مدى رسوخها وأصالتها من خلال اتصالها بالواقع« فالعمل الواقعي هو العمل الثَّري الذي ينطوي على تركيب شامل للعلاقة بين الإنسان والطبيعة والتاريخ، يتجسَّد في صورة أنماط تعبِّر عن مراحل التاريخ وتكشف عنه، والواقعية لا تتنكَّر لروح العصر، كما لا تقتصر على نموذج واحدٍ للفن، وإنَّما تبقى مرتبطة بالفنان وبوضعه داخل مجتمعه، واستيعابه لوضعه التاريخي ورؤية "لوكاتش" للواقعية تُنبني على ضرورة تصوير الإنسان، إذ يرى أنَّه ما من أدب إلاَّ وكان الإنسان نقطته الجوهرية»[12]. فالكتابة التاريخية والروائية ينبنيان على إعادة تشكيلهما للواقع وكيفية إعادتهما للتاريخ من خلال جعله إطارا لأحداثهما وفضاء تعمل فيه شخوصها، فالرواية التاريخية تفجر التاريخ لتعيد النبش فيه والبحث في المسكوت عنه.

2- الأسباب التي أدت بالروائي الجزائري إلى العودة إلى التاريخ:

من أهم الأسباب التي أدَّت بالروائي العربي بصفة عامة والروائي الجزائري خاصة إلى العودة إلى التاريخ هزيمة حزيران 1967، حيث تعتبر الحجر الأساس لبناء صرح الرواية

العربية «لقد كانت الهزيمة بمثابة الصَّفعة المنبهة للإنسان العربي "لا يشك المرء في أن واقع الهزيمة المر هو الذي دفع الأدباء بشكل غير مباشر إلى فترة زمنية حقق العرب فيها نصرًا على المستعمر، بحيث تشكِّل العودة عامل توازن يحفظ للنفس العربية كيانها»[13]. كانت الهزيمة بمثابة الهاجس الذي يؤرِّق الروائي العربي، وهذا ما تركه يرتمي في أحضان التاريخ، لعلَّه يسعفه لإصلاح الواقع الحاضر، وبهذا يعتبر الحاضر العربي هو حاضر الرواية التاريخية،« وعليه ظهر موضوع التراث إذن إبأَن أخطر أزمة سياسية واجهت العرب بعد ثوراتهم الحديثة وإبَّان المد الثوري العربي الذي أصبحت فيه القومية العربية إحدى نماذج التحرر في العالم الثالث كله، أزمة تهدِّد الوجود وليس الحدود»[14]، أي تهدِّد وجود الجنس العربي ككل وليس أرضه ووطنه فقط، لهذا أخذ الروائي الجزائري ينهل من التراث والأحداث التاريخية الماضية، محاولاً ربط الحاضر وتحولاته بالماضي« وإذا كان من الطَّبيعي أن ينصبَّ الاهتمام الأول للرِّواية العربية بعد الهزيمة على البحث عن الأسباب التي أدَّت إليها ومن ثمَّ استيعاب الدروس التي أثارتها الهزيمة، فقد كان من الطبيعي أيضًا أن تتلازم أسئلة التراث والمعاصرة وأسئلة العلاقة مع الغرب المتفوق حضاريا والمقنع بأقنعة استعمارية جديدة بأنَّ من أسئلة الهزيمة التي أنتجت معا حراكا ثقافيا عربيا عني بالعودة إلى الجذور لاستلهام التراث»[15] نظرا للانقطاع الذي حصل مع الماضي. حاول الرِّوائي الجزائري والعربي بصفة عامة ردم الهوة الذي تفصل بينه وبين ماضيه من خلال إحيائه من جديد.

لقد كان أثر النَّكبة كبيراً، حيث أحسَّ كل عربي أنَّها زعزعت كيانه ومسحت مستقبله بعد أن لوَّثت حاضره« وعمَّقت عدم ثقته في ماضيه فهو وليد لحظة الهزيمة بكل حرارتها وثقلها ومسؤوليتها، المحس لهولها، ولعميق تأثيرها على كيان نفسية كل مبدع وباحث»[16] لقد كتب عن النَّكبة كل أديبٍ وشاعرٍ، علهم يسهمون في إعادة البناء من جديد لكيانهم الذي تحطَّم، لهذا حاول الروائيُّون العودة إلى تراثهم والكتابة عنه، لأنَّ البحث عن التراث بعد الهزيمة يعتبر بحثا عن الخلاص، وعن الهوية المفقودة والتمسك بجذور الماضي أكثر[17]، وهذا الأمر تطلَّب من كل مبدعٍ أن يقوم بنقد ذاته ومجارات التاريخ من أجل نهضة عربية وفي هذا يقول (إلياس خوري): «إنَّ الإنتاج الروائي لمعظم الروائيين العرب الذين اصطدموا بالمشروع الصهيوني انطلق من وعيٍ جديد بعد الهزيمة فقدت الرواية رؤية جديدة بالغة الأهمية والدلالات»[18].

وهناك من يرى أنَّ تأثير الهزيمة مسَّت حتى الأخلاق، حيث ظهرت عودة كبيرة إلى أحضان الدين، وهجر المظاهر الفاسدة، ولكن عندما جاء الانفتاح الاقتصادي ظهر رجل الدين (الانفتاحي) الذي يتستر وراء الدين، ويقضي مآربه، لهذا ازدادت المشاكل الاقتصادية وشعر الشباب بالضياع، فظهرت الجماعات الدينية المتطرفة.[19]

في حواراتٍ جمعت(لعبد الله ركيبي)، سُأل عن هزيمة 1967 وبصماتها على الوعي العربي، أي كيف ظهر هذا التأثير في الأدب الجزائري؟

أجاب قائلا:

«ج: أعتقد أن نكسة 1967 عبَّر عنها الشُّعراء العرب بنوع من الحزن والتشاؤم بينما نجد أنَّ الأدباء والشُّعراء الجزائريين عبَّروا عنها بنوع من السخط والتمرد والنقد للأوضاع العربية والحكومات، سواءً التي كانت سبب هذه الكارثة التي لم تقم بدورها في حرب 1967»[20] نجد أنَّ الشاَّعر والأديب الجزائري دائمًا مختلفٌ عن غيره من الأدباء والشُّعراء العرب، فهو لا يركن للحزن والتشاؤم ويقبع في مكانه يشاهد من بعيد ليصف الأزمة والنكسة وهو في قصورٌ من عاج، بل عبَّر عنها بنوع من الثورة لينبش عن المسببات ويقدم الحلول، لأنَّه ذاق مرارة الاستعمار الفرنسي الذي تصدى له كل الشعب الجزائري بإرادة من فلاذ ليقدم مليون ونصف المليون شهيد عربونا للحرية والاستقلال.

نستخلص من كل هذا أن هزيمة 1967 هي المسبب الأول والرئيسي الذي أدى بالروائي الجزائري في أن يعود للتاريخ والتراث.

3- بين التاريخي والروائي:

رغم اعتماد الروائي على المرجعية التاريخية إلاَّ أنَّ الرواية تبقى مختلفة عن التأريخ بفضل عناصرها الفنية حيث« لا يمكن للرِّواية أن تصير تاريخًا تامًا، كما لا يمكن للتاريخ أن يصير رواية فنية، وإن كانا ينهلان من منابع واحدة، ويهدفان إلى الإحاطة بعالم موجود متحقق، إن في الواقع أو في الخيال، ولكن هذا لا يلغي الصلة التي تقربهما أو تباعد بينهما»[21]. فالرِّوائي يتعامل مع التاريخ تعاملا تخييليا، وإذا لم يتعامل معه بهذه الطريقة فإنه يكون بصدد التأريخ لا من أجل كتابة خطاب أدبي« عند هذا التماس يكمن الشبه بين الروائي والمؤرِّخ، فكلٌ منهما يهدف إلى رسم صورة تتألف من عدة عناصر بحيث تنطوي على حكاية أو سرد للأحداث، ووصف للمواقف، وعرض للدَّوافع أو البواعث، وتحليل لسُلوك أوفعل

الشخصيات، كما أنَّ كلا منهما يهدف إلى تقديم صورة كاملة، من حيث التماسك والانسجام»[22] وهذا ما نجده عند إبراهيم سعدي حيث يتعامل مع الأحداث التاريخية تعاملا فنيا تخييليا، كما يعتمد على تقنيات التلاعب بالزمن من خلال الاستباق والاسترجاع بطريقة جد ممتعة، كما أنه يصور الأحداث التي وقعت في العشرية السوداء بطريقة وصفية جد مؤثرة في القارئ فيجعله يعيشها لحظة بلحظة.

«ذلك لأنَّ النَّص الأدبي نتاج قلقٍ وهاجسٍ ينبثق بالضَّرورة من مرحلة متعلقة بزمان ومكان، وهو ما يجعل من هذا النَّص وثيقة جديرة بأن تصنَّف ضمن مجموعة الأدوات التي يعتمدها المؤرخ لكن بشرط أن يكون هذا المؤرخ ناقدا أديباً»[23]. أحيانا يعمد الرِّوائي إلى توثيق الأخبار بذكر نزولها في جريدة مثلا، ويوظفها في الرِّواية حيث يمزج بين الواقع والخيال، فيكون النَّص الرِّوائي بهذه الطريقة مثل العجينة في يده، وهو يشكِّله كما يشاء من خلال عملية التذكر لأحداثٍ تاريخية ماضية، وهذا ما يجعل النص« مقبولاً للقراءة من خلال خصوصية هذا الوضع الإجمالي لطبقات التدليل الحاضرة هنا في اللسان، وحيث توقظ الذاكرة: التاريخ»[24].

فالذَّاكرة بمثابة المحفّز الذي يخدم التاريخ لتستحضره من جديد، لمعالجة الحاضر المتأزِّم« إنَّ ولادة الرواية التاريخية العربية الحديثة، كان بتأثيرٍ مباشرٍ من الرواية التاريخية الأوروبية، ومن الرواية الرومانسية بصفة خاصة زرع بذورها الأولى في تربة لبنان الرّائد سليم البستاني، ثم أقبل جرجي زيدان يوسع أبعادها، ومضى فيها من أول الطريق.

فالرِّواية التاريخية تطوَّرت تطورًا صعباً وشاقا، فكانت في بدايتها الأولى ترجمة فاقتباسا فتقليدا، فابتكاراً»[25]، حيث أصبح الرِّوائي العربي يشقُّ طريقه الخاص ليبني صرح الرِّواية التاريخية العربية. فالرِّوائي العربي كان يرى نفسه مثل الابن بالتبني للغرب، لهذا كان يسعى دائما للبحث في ماضيه عن من هم ذويه وأهله لينتمي لهم، ويسير على عرفهم وتقاليدهم فيكتسب لنفسه لقباً خاصاً به وهو "الرواية التاريخية العربية"، "فمدرسة الأزهر مثلا لدرجة تعصبها، كانت ترفض كل ما هو غربي لما فيه من ابتعاد عن التراث، حيث ترى أنَّ التراث هو تراث اللغة العربية، لغة القرآن الكريم[26] ومن الضَّروري أن نشير هنا: أنَّ الأدب العربي قد ظل من أكثر الآداب العالمية التصاقا بالسياسة والدين، منذ عصوره القديمة حتَّى الآن فكان شأن الأدب يعظم ويصغر، ويبقى بين المدِّ والجزر في أغلب الأحيان، بمقدار انغماسه

فيهما أو بعده عنهما، ولذا تحكم التقليد الصارم والمراقبة المستمرَّة في الاتجاه العام للحركة الأدبية العربية ومدى نموها[27] نجد أنَّ هذه النظرة متمسكة بموروثها بعنف، يجعل منها نظرة منغلقة بعيدة كل البعد عن استلهام مستجدات العصر، فكانت نتيجة هذا التعصب ظهور تيارات متصارعة بين دعاة القديم (الإحيائيون) ودعاة التجديد.

«وفي نفس الوقت الذي أخذ المفهوم العام يؤكِّد على أنَّه لم يعد "أدب الملاحم والمقامات بكافٍ أن يعد تراثًا روائيًا في الأدب العربي، لذا اضطرَّ قَصَّاصونا الأوائل إلى استيعاب الأشكال القصصية التي ابتدعتها قرائح الغرب، فنهضتنا الأدبية تأثرت بقوالب الفن الأوروبي بطريق مباشر»[28] ومن هنا تأثر الرِّوائي العربي بالغرب كما قلنا سابقا وأدخل فناً جديد وهو فن الرِّواية، التي والتي عرفت تطورًا مع مرور الزَّمن من خلال صبغتها بمرجعيات عربية خصوصا المرجعية التاريخية.

نرى أنَّ الرواية التاريخية الجزائرية قد اهتمت بواقع الثورة أثناء فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر ونيلها للاستقلال، ليس لها إلاَّ تفسير واحد وهو« الحاضر العربي، فهذا الحاضر حاضر صدور الروايات التاريخية. مشغولٌ بمواجهة الإمبريالية والاستعمار الصهيوني، حيث يربط الماضي بالحاضر، كما تقدم الرواية التاريخية عظة مفادها أن النضال لابد أن ينتهي إلى أمرٍ إيجابي»[29].

لقد تغنَّت الرِّواية الجزائرية بالماضي، لكي تكون له أهمية في الحاضر ويدفع به إلى الأمام فرغم ما وجده الروائي الجزائري من عمل شاق إلا أنه كان يملك إرادة قوية تعمل على بث الروح القومية لنهضة جديدة رغم كل العراقيل والصعوبات.

« فالماضي هو التاريخ وهو أيضًا عالم الحرية الإنسانية الشامل، حيث يتحرك الإنسان ضمن إطاره أحيانا بحرية لا محدودة، ويعبر عن وجهة نظره بمقياس تفهمه لأحداثه، ولكي تكون للرواية أهمية حاضرة ضمن الإطار التاريخي، لابد لها من مواكبة منهج الأحداث التاريخية وفق الآفاق الروائية، لكونها تسترد الحدث من أعماقه البعيدة الماضية، وتبنى صور ذلك الماضي في إطاره.. عبر المحاولة الهادفة الرامية إلى بعثه من مرقده»[30].

كان الكتَّاب يلجؤون إلى التاريخ، لبثِّ القيم السّامية والتَّذكير بالتَّضحيات التي قدمت من أجل هذا الوطن، وأحيانًا للهروب من هذا الواقع المرير والاحتماء بالتراث التاريخي« اللحظة الرَّاهنة في تاريخنا العربي الحديث مازالت لحظة نهضوية، مازلنا نحلم بالنهضة...والنهضة لا

تنطلق من فراغ، بل لابد فيها من الانتظام في تراث، والشعوب لا تحقق نهضتها بالانتظام في تراث غيره، بل بالانتظام في تراثها هي، تراث الغير، صانع الحضارة الحديثة»[31]

يمكن للماضي أن يقدِّم حلولاً لقضايا الحاضر، فالروائي عندما يهمل ماضيه وتراثه وتاريخه، يجعل من الجنس الروائي فاقدا للهوية الذاتية، فعلاقة الرواية بالواقع هي التي تثبت جدارة الروائي وتميزه، لأنَّ هذه العلاقة هي مكمن الإبداع الروائي «هل لنا أن نتصوَّر رواية بعيدة كل البعد عن الواقع التاريخي والاجتماعي، وتحتفظ مع ذلك بتماسكها وبالاتساق الذاتي المطلوب في كل عمل فني؟ أبدًا، ولئن وُجد شيء من هذا القبيل فلا ينبغي أن نسمِّيها رواية، بل خرافة أو رومانس، وينبغي عند ذلك ألاَّ نصفه بأنَّه يزيف الواقع وإنَّما هو منقطع الصِّلة بأي واقع عيني، حتى ولو استعمل أسماء محلية وتاريخية»[32] فمثلا في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" نجد الرِّوائي قد استحضر أحداث من واقع الجزائر ابتداءً بالثورة التحريرية الكبرى ومرحلة الاستقلال، بالإضافة إلى استحضاره لأحداث العشرية السّوداء، وقد قدَّم هذه الوقائع بصورة فنية رائعة من خلال المزاوجة بين الماضي والحاضر ماضي الثورة وحاضر الإرهاب، تتولد الحقيقة لتوهم القارئ بواقعية الأحداث والشخصيات وتجعله يعيشها لحظة بلحظة، يعود بنا إلى الماضي الجميل، ماضي العزة والكرامة في زمن الثورة التحريرية الكبرى .فالثورة الجزائرية تتميز «عن باقي ثورات العالم بإنجازاتها العظيمة وانتصاراتها الباهرة حتى أصبحت قدوة للشعوب الضعيفة في العالم، لأنَّها حققت مالم يكن في الحسبان فاعتبرت الثورة معجزة القرن العشرين»[33]. فثورة أول نوفمبر 1954 كانت قد خلدت الشعب الجزائري، الذي عرف مجاهدين لا يخشون أي شيء في سبيل استقلال الوطن ثاروا ضد الاستعمار لمدة طويلة تجاوزت السبعين عاما بالسلاح، في المدن والأرياف والجبال والصحاري[34].

وبعد كل هذه التضحيات الجسام التي قدموها حتى ارتوت أرض الجزائر بدمائهم الطاهرة فخضرت ونمت لتهزم أعظم استعمار، حيث «فشل الاستعمار وفشلت مشروعاته وتصميماته فشلا ذريعا أمام تشدد جبهة التحرير الوطني ومواصلة جيش التحرير الوطني لكفاحه القوي الشديد»[35].

كان تأثير الثورة شديداً على كل الشَّعب الجزائري، لأنَّ فرحة الاستقلال والحرية لم تسع قلوبهم فكتب عنها الشُّعراء والأدباء والصحفيون والروائيون تخليدا لتاريخ الانتصار، لأنَّ كتابة التاريخ لم تبقَ حكرًا على المؤرخ فقط، فهي مهمة منوطة بكل مثقف غيور عن الوطن فالقلم

مثل السلاح، يقتل ويحيي، ينزف دمًا إذا جرح الوطن، ويبعث الربيع في الأرض الميتة، فالروائي يحمل أمانة الوطن مع المؤرخ، أثناء كتابة الرواية التاريخية فإنه يعود إلى مذكرات رجال الدولة والمناضلين القدماء في الحركة الوطنية أثناء الثورة، والعسكريين وإلى المناشير التي كتبتها الصحف أثناء الثورة ليوثق لأحداثه، وفي هذا يقول (أبو القاسم سعد الله): «القول بأنَّ كتابة التاريخ من عمل المؤرخين وحدهم هو قولٌ خاطئٌ في نظري، إنَّ الكتابة التاريخية قدر مشترك بين جميع المواطنين، ولكن كل فئة منهم لها دورها وتفسيرها وموقفها من الأحداث، وهذا هو الفرق بين المؤرخ وغيره»[36].

لهذا على كل مثقف أن يساهم في تسجيل التاريخ، وهذا ما سعى إليه الرِّوائيون الجزائريون مثل الطاهر وطار في رواية (اللاز) وواسيني الأعرج في(الأمير مسالك أبواب الحديد)، وإبراهيم سعدي في روايتي(فتاوي زمن الموت)، (وبوح الرجل القادم من الظلام) وغيرهم. فعلى الكتَّاب أن يقوموا بـ«كتابة الرِّوايات والأشعار المستمدَّة من واقع التاريخ المليء بالنَّماذج الحية من بطولات وأحداثٍ بارزة ومواقف إنسانية وتضحيات في سبيل الوطن...بل إنَّ من الأدباء من يكتب تاريخ الأدب، فيحس فيه مدى ارتباط الأدب بالشعب وعلاقة الأديب بأحداث بلاده وهكذا بقية الفئات المثقفة»[37].

لقد اهتمَّ الروائي الجزائري بكلِّ التحولات التي مرَّت بها الجزائر، وخصوصًا أحداث أكتوبر 1988 التي عقبت الانتخابات التشريعية، والتي قلبت الموازين، كتب عنها الطّاهر وطار في روايته "الشمعة والدهاليز" «التي تزامنت مع الانقلاب السياسي الذي عرفه المجتمع الجزائري بعد 5 أكتوبر 1988، ذلك الواقع الجديد بكل تناقضاته الجديدة، تحاول الرِّواية البحث عن المسببات والمرجعيات التاريخية، التي أوصلت الإنسان الجزائري المتحول باستمرار، إلى اتخاذ القتل وسيلة للوصول إلى السلطة»[38]. نقلت الرواية أحداث هذه الفترة بأسلوبٍ فني جد مؤثِّر في القارئ، ونفس الأمر ذهب إليه إبراهيم سعدي، حيث اهتم بهذه الفترة من مخاض الجزائر هو وغيره من الروائيين. لقد كانت نقطة التحول هذه في الجزائر «نقطة لتخليص المجتمع من مواجهته المأساوية التي كانت قائمة بين المجتمع وبين نظام الدولة وسلطتها القمعية، إلا أنَّ هذا التخليص أرجع المجتمع إلى نقطة الصفر...لأنَّ الجزائر خرجت من أزمة من باب ودخلتها من باب آخر»[39].

سنحاول طرح بعض العوامل التي أجبرت الشَّاعر العربي المعاصر للعودة إلى الموروث، بحيث تعتبر نفس العوامل التي أثرت في الروائي الجزائري المعاصر، فكلاهما ينتمي إلى الطبقة المثقفة العربية وتؤثر فيها نفس العوامل وهي كالآتي:

4- عوامل عودة الروائي الى الموروث:

1- عوامل فنية.
2- عوامل ثقافية.
3- عوامل سياسية و اجتماعية.
4- عوامل قومية.
5- عوامل نفسية.

أولا: العوامل الفنيــة :

يعتبر التراث العربي تراثا زاخراً جدًا وثرياً بكل الإمكانيات الفنية، وحين يوظفها الشاعر تكتسب نصوصه نوعا من الأصالة الفنية من خلال اكتسابها للبعد التاريخي الحضاري[40] وهذا ما يضفي عليها جمالا وبريقا يعريها من الصدأ والجمود.

ثانيا: العوامل الثقافيــة:

لقد كان لتأثير حركة إحياء التراث، الدَّور الكبير في كشف الكنوز التراثية، فقد ساعدت هذه الحركة على استلهام التراث وعدم تضييعه، فراح الشعراء يسجلون التراث ويعبرون عنه وهكذا ساعدوا على إحيائه من مرقده[41]، وهذا ما سعى إليه الروائي الجزائري أيضا، مثل (محمد مفلاح) الذي زخرت العديد من نصوصه الروائية بتراث الجزائر.

ثالثا: العوامل السياسية و الاجتماعيــة:

نظرًا للظروف السياسية القاهرة التي مرَّت بها الدول العربية، والتي كبَّلت حريات الشعوب «وفرضت على أصحاب الكلمة من شعراء وكتَّاب ومفكرين ستارا رهيبا من الصمت بقوة الحديد والنار...فإنَّ أصحاب الكلمة يلجؤون إلى وسائلهم وأدواتهم الفنية الخاصّة التي يستطيعون بواسطتها أن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم بطريقة فنية غير مباشرة، لا تعرضهم لبطش السلطة الغاشمة»[42].

فكثيرا ما نجد الروائيين والشُّعراء يعبِّرون عن التحولات السياسية التي تمس الوطن العربي، فمثلا أحداث أكتوبر 1988 حركت العديد من الأقلام الروائية الجزائرية للكتابة عنها

وعن المخاض الذي أحدثته، لتوقظ العملاق من نومه وتفجر ينابيع الدماء التي جفت بعد الاستقلال.

رابعا: العوامل القومية:

ينهض العامل القومي في ضمير الأمم، ويحيا عندما تشعر الأمم بخطر يهدد كيانها وهويتها الذاتية، وهذا ما يجعلها تعود مباشرة إلى التراث لتتمسك به، من أجل إثبات كيانها أمام هذا الخطر، حيث يعيد لها شخصيتها القومية ويثبت أصالتها وتفردها بعاداتها وتقاليدها وتاريخها العريق[43] بعد هزيمة حزيران 1967 نهض الضمير القومي العربي من غفوته ورأى ضرورة التمسك بالتراث لأنه أحس أن كيانه تحطم وكرامته قد أهينت.

خامسا: العوامل النفسية:

كان دائمًا يحس الشاعر العربي المعاصر بغربة، حيث كان يرى نفسه يعيش عالما غير عالمه وواقعا مريرا مليئا بالزيف والتعقيد، لهذا حاول الهروب من هذا الواقع والبحث عن عالم المثل بعيدا عن زيف الحياة ومرارتها، فكان التراث هو الملاذ الوحيد للهروب من خلال تلك الأساطير التي يزخر بها حيث يعيش سذاجة الأحلام الأسطورية وعفويتها[44].

نلاحظ من خلال كل هذه العوامل التي أثَّرت في الشَّاعر العربي المعاصر هي عوامل مشتركة بينه وبين كل روائي و أديب و مفكر عربي، والتي دفعتهم بأن يعودوا إلى التراث ويكتبوا من خلاله بكل ثقة وعزة فأصلهم العريق لا تزعزعه الظروف أو التحولات.

«لقد استهدف الاستعمار محو الذات الجزائرية بإذابتها في الذات الفرنسية عن طريق وسائله التعليمية، والتبشير الديني والعمل العسكري القمعي، إذ سعى إلى إفراغ عقل الإنسان الجزائري من هويته وشخصيته إلا أنَّ إدراك الإنسان الجزائري اختلافه عن الفرنسي، ثقافة وفكرا ودينا ولغة وحضارة، حفَّزه وقوَّى لديه رغبة تأكيد ذاته ومن ذلك هويتة.. فكانت الثورة التحريرية بمثابة الوسيلة التي سمحت للإنسان الجزائري بتأكيد ذاته»[45].

فالرواية بتسجيلها لكل التحولات أضحت هي ديوان العرب الذي يحفظ تاريخه، كما أنها تقوم بطرح مشكلات الوطن العربي وتقديم حلول لها، وهذا ما يسميه لوسيان غولدمان (الوعي الفعلي والوعي الممكن)، فالرّوائي الجزائري مثلا تأثر بالمخاض والتحولات السياسية التي مرَّت بها الجزائر منذ فترة الاستعمار إلى ما بعد الاستقلال فكان وفيًا لكل تلك الأحداث وقام بنقلها إلى الأجيال الآتية بطريقة فنية ومشوقة، كي يقربه أكثر إلى معرفة تاريخ وطنه ولا يجعله

غريبا عنه، لا يحمل منه إلا الجنسية الجزائرية «فالرواية كأي من الفنون الكبرى عمل حضاري، وهي إشارة إلى التحول الحضاري إذا تحققت كعملية فكرية ولغوية وبنائية»[46].

ورغم هذا تبقى الرواية ليست تعبير عن الواقع كما هو، بل هي إيهام بالواقع، حيث ترى (فيرجينيا وولف) أن الرواية لا تستطيع أن تقدم صورة كاملة أو حتى شبه كاملة عن الواقع، حتى وإن كانت هي الأقرب إلى التعبير عنه، فروائي ق 20 يرى أن الرواية كيان مفتوح عكس ما كان سائدا في ق19 حيث كانت تعتبر الرواية سيطرة على الواقع[47].

قائمة المصادر والمراجع :

* « الهوية أداة للصراع:

غير أن التعايش في وئام وتمازج متبادل ليس قاعدة مطلقة فقد تتحول الهوية إلى أداة للصراع كما هو الشأن في الوضعية الكولونيالية التي عرفتها الجزائر حيث تحولت على الرغم من تاريخها الطويل وتراثها العريق بعد سنتين من الاحتلال (1834) إلى مجرد إمتداد جغرافي لفرنسا مما جعل الهوية تستخدم من كلا الطرفين المتصارعين من منظور إستراتيجي، هي بالنسبة للجزائريين كفاح من أجل البقاء، وهي بالنسبة للغزاة الفرنسيين عائق ينبغي إزالته لابتلاع الأرض وتفريغ سكانها من الإنتماء إليها وإلى عمقها المعنوي (الدين واللغة هما من أهم دعائم الانتماء إلى مجموعة وطنية» محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية (وقضايا اللسان والهوية). ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د:ط)، 2003، ص119.

(1) يوسف الأنطاكي، سوسيولوجيا الأدب الآليات والخلفية الإبستميولوجية. تقديم: محمد حافظ دياب، رؤية للنشر والتوزيع. (ط:1). 2009. ص216.

(2) آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية. من المتماثل إلى المختلف. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، (ط:2)، 2011، ص134.

(3) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار). ص19.

(4) المرجع نفسه. ص20.

(5) المرجع نفسه. ص21. 22.

(6) المرجع السابق. ص23.

(7) المرجع نفسه. ص28.

(8) يوسف الأنطاكي، سوسيولوجيا الأدب. ص201.

(9) ينظر: عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. (ط:2). 1999. ص97.

(10) بول ريكور، الهوية والسرد. تأليف: حاتم الورفلي، (د:ط)، (د:ب)، دار التنوير للطباعة ونشر وتوزيع، 2009. ص34.

(11) آنيا لومبا، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، في نظرية الإستعمار ومابعد الإستعمار الأدبية. (ط:1)، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2007، ص79.

(12) المويقن مصطفى، تشكل المكونات الروائية. دار الحوار. اللاذقية. (ط:1). 2001. ص36.

(13) المرجع نفسه. ص38.

(14) علي رحومة سبحون، إشكالية التراث والحداثة في الفكر العربي المعاصر. بين محمد عابد الجابري وحسن حنفي (نموذجا) دراسة تحليلية مقارنة. ص15.

(15) نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. دار الألمعية للنشر والتوزيع. (د:ب). (ط:1). 2010. ص93.

(16) أحمد زكي كنون، المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر (من النكبة إلى النكسة). إفريقيا الشرق. المغرب. (د:ط). 2006. ص136. 137.

(17) ينظر: رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة. دار الشروق للنشر والتوزيع.الأردن. (ط:1). 2003. ص217.

(18) المرجع نفسه. ص54.

(19) ينظر: حسن عيد، مفهوم السلطة والدين في تجربة فتحي غانم الإبداعية. مركز الإنماء الحضاري. حلب. (ط:1). 1999. ص52. 53.

(20) عبد الله ركيبي، حوارات صريحة. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. (د:ط). (د:س). ص228.229.

(21) المويقن مصطفى. تشكل المكونات الروائية. ص40.

(22) المرجع السابق. ص49.

(23) حميدات مسكجوب، إتجاهات نقد القصة القصيرة في الجزائر. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. (د:ط). 2011. ص31.

(24) عمر أوقان، مدخل لدراسة النص والسلطة. أفريقيا الشرق. (د:ب). (ط:2). 1994. ص66.

(25) نواف أبو ساري، الرواية التاريخية "مولدها وأثرها في الوعي القومي العربي العام" رواد وروايات، دراسة تحليلية تطبيقية نقدية. بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة. (د:ط). 2003، ص32

(26) ينظر: المرجع السابق. ص19.

(27) ينظر: المرجع نفسه. ص20.

(28) ا لمرجع نفسه . ص21.

(29) المرجع نفسه. ص39.

(30) نواف أبوساري، الرواية التاريخية "مولدها وأثرها في الوعي القومي العربي العام" رواد وروايات، دراسة تحليلية تطبيقية نقدية. ص23.

(31) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة (دراسات ومناقشات). مركز الوحدة العربية. بيروت. (ط:1). 1991. ص33.

(32) المرجع نفسه. ص18.

(33) إبراهيم مياسي، قبسات...من تاريخ الجزائر. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. (د:ط). 2010. ص189.

(34) ينظر: المرجع السابق. ص189.

(35) المرجع نفسه. ص194.

(36) الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإلام والثقافة بالجزائر، السنة الحادية عشرة، العدد66. محرم، صفر 1402 هـ. نوفمبر، ديسمبر 1981. ص7.

(37) المرجع نفسه . ص8.

(38) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار) مقاربة سوسيو ثقافية. دار الغرب للنشر والتوزيع. وهران. (د:ط). 2005. ص9.

(39) المرجع نفسه. ص196/195.

(40) ينظر: علي عشري زايد، إستدعاء الشخصيات التراثية (في الشعر العربي المعاصر). دار الفكر العربي. القاهرة. (د: ط). 1997. ص16.

(41) ينظر: المرجع نفسه. ص25.

(42) المرجع نفسه. ص32، 33 .

(43) ينظر: المرجع نفسه. ص39.

(44) ينظر: المرجع السابق. ص42.

(45) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار). ص11- 12.

(46) رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة. ص25.

(47) محمد شاهين، آفاق الرواية (البنية والمؤثرات). إتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د:ط)، 2001، ص6.

الهوامش:

---

* « الهوية أداة للصراع:

غير أن التعايش في وئام وتمازج متبادل ليس قاعدة مطلقة فقد تتحول الهوية إلى أداة للصراع كما هو الشأن في الوضعية الكولونيالية التي عرفتها الجزائر حيث تحولت على الرغم من تاريخها الطويل وتراثها العريق بعد سنتين من الاحتلال (1834) إلى مجرد إمتداد جغرافي لفرنسا مما جعل الهوية تستخدم من كلا الطرفين المتصارعين من منظور إستراتيجي، هي بالنسبة للجزائريين كفاح من أجل البقاء، وهي بالنسبة للغزاة الفرنسيين عائق ينبغي إزالته لابتلاع الأرض وتفريغ سكانها من الإنتماء إليها وإلى عمقها المعنوي (الدين واللغة هما من أهم دعائم الانتماء إلى مجموعة وطنية» محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية (وقضايا اللسان والهوية). ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د:ط)، 2003، ص119.

(1) يوسف الأنطاكي، سوسيولوجيا الأدب الآليات والخلفية الإبستميولوجية. تقديم: محمد حافظ دياب، رؤية للنشر والتوزيع. (ط:1). 2009. ص216.

(2) آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية. من المتماثل إلى المختلف. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، (ط:2)، 2011، ص134.

(3) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار). ص19.

(4) المرجع نفسه. ص20.

(5) المرجع نفسه. ص21. 22.

(6) المرجع السابق. ص23.

(7) المرجع نفسه. ص28.

(8) يوسف الأنطاكي، سوسيولوجيا الأدب. ص201.

(9)ينظر: عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. (ط:2). 1999. ص97.

(10) بول ريكور، الهوية والسرد. تأليف: حاتم الورفلي، (د:ط)، (د:ب)، دار التنوير للطباعة ونشر وتوزيع، 2009. ص34.

(11) آنيا لومبا، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، في نظرية الإستعمار ومابعد الإستعمار الأدبية. (ط:1)، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2007، ص79.

(12) المويقن مصطفى، تشكل المكونات الروائية. دار الحوار. اللاذقية. (ط:1). 2001. ص36.

(13) المرجع نفسه. ص38.

(14) علي رحومة سبحون، إشكالية التراث والحداثة في الفكر العربي المعاصر. بين محمد عابد الجابري وحسن حنفي (نموذجا) دراسة تحليلية مقارنة. ص15.

(15) نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. دار الألمعية للنشر والتوزيع. (د:ب). (ط:1). 2010. ص93.

(16) أحمد زكي كنون، المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر (من النكبة إلى النكسة). إفريقيا الشرق. المغرب. (د:ط). 2006. ص136. 137.

(17) ينظر: رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة. دار الشروق للنشر والتوزيع. الأردن. (ط:1). 2003. ص217.

(18) المرجع نفسه. ص54.

(19) ينظر: حسن عيد، مفهوم السلطة والدين في تجربة فتحي غانم الإبداعية. مركز الإنماء الحضاري. حلب. (ط:1). 1999. ص52. 53.

(20) عبد الله ركيبي، حوارات صريحة. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. (د:ط). (د:س). ص228.229.

(21) المويقن مصطفى. تشكل المكونات الروائية. ص40.

(22) المرجع السابق. ص49.

(23) حميدات مسكجوب، إتجاهات نقد القصة القصيرة في الجزائر. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. (د:ط). 2011. ص31.

(24) عمر أوقان، مدخل لدراسة النص والسلطة. أفريقيا الشرق. (د:ب). (ط:2). 1994. ص66.

(25) نواف أبو ساري، الرواية التاريخية "مولدها وأثرها في الوعي القومي العربي العام" رواد وروايات، دراسة تحليلية تطبيقية نقدية. بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة. (د:ط). 2003، ص32.

(26) ينظر: المرجع السابق. ص19.

(27) ينظر: المرجع نفسه. ص20.

(28)ا لمرجع نفسه . ص21.

(29) المرجع نفسه. ص39.

(30) نواف أبوساري، الرواية التاريخية "مولدها وأثرها في الوعي القومي العربي العام" رواد وروايات، دراسة تحليلية تطبيقية نقدية. ص23.

(31) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة (دراسات ومناقشات). مركز الوحدة العربية. بيروت. (ط:1). 1991. ص33.

(32) المرجع نفسه. ص18.

(33) إبراهيم مياسي، قبسات...من تاريخ الجزائر. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. (د:ط). 2010. ص189.

(34) ينظر: المرجع السابق. ص189.

(35) المرجع نفسه. ص194.

(36) الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإلام والثقافة بالجزائر، السنة الحادية عشرة، العدد66. محرم، صفر 1402 هـ. نوفمبر، ديسمبر 1981. ص7.

(37) المرجع نفسه . ص8.

(38) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار) مقاربة سوسيو ثقافية. دار الغرب للنشر والتوزيع. وهران. (د:ط). 2005. ص9.

(39) المرجع نفسه. ص196/195.

(40) ينظر: علي عشري زايد، إستدعاء الشخصيات التراثية (في الشعر العربي المعاصر). دار الفكر العربي. القاهرة. (د: ط). 1997. ص16.

(41) ينظر: المرجع نفسه. ص25.

(42) المرجع نفسه. ص32، 33 .

(43) ينظر: المرجع نفسه. ص39.

(44) ينظر: المرجع السابق. ص42.

(45) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار). ص11- 12.

(46) رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة. ص25.

(47) محمد شاهين، آفاق الرواية (البنية والمؤثرات). إتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د:ط)، 2001، ص6.